

الباب الخامس

شهرة ديكنز وأهم رواياته

إذا فرضنا أن تشارلس ديكنز لم يكن صاحب شخصية لامعة في تاريخ الأدب الإنجليزي، في القرن التاسع عشر، فانه يجب علينا أن نقدر أهميته بالنسبة للتاريخ نفسه. فهو لو لم يكن يحتل مكانة كبيرة بجانب غيره من الأدباء أمثال فيلدنج و تاكري، فانه يستطيع أن يحتل مكانة رفيعة بجانب وات تايلور وويلكز، لأنه كان يقود الشعب، ويوجهه إلى الإصلاح. إن الناس حينما كانوا يقرأون كتبه فانهم كانوا يتمنون لو تطول القصة بهم إلى الأبد وليس كما نقرأ قصص اليوم، فاننا نقرأ الرواية لكي نقضى الوقت غير مكترئين بمزاياها أو حوادثها، إلا بالنسبة القليلة التي بها نعرف موضوعها وغايتها. وكثيراً ما يقرأ الإنسان رواية من روايات ديكنز ست مرات بدون أن يتعب أو يمل من هذا النوع من القراءة، التي يقرأها الصبي فيسر بها، ويستحسنها عن غيرها أو يستمتع بها بالنسبة لسنه. ثم يقرأ نفس هذه الرواية وهو رجل فزداد تقديره لها حسب تجاربه وإدراكه للحياة. والسر في شهرة ديكنز هو أنه كتب روايات كان يدور موضوعها حول العالم الحقيقي وليس حول عالم الخيال - عالم يستطيع الروح أن يعيش فيه. ففي العصر الذي كانت تظهر كتابات ديكنز متسلسلة، كان الناس يتحدثون عن الحياة الجديدة الحقيقية التي خلقها لهم ديكنز كأنها الفترة بين عدد وآخر من بيكويك يبرز. وعندما نصل إلى الفترة التي كتب فيها ديكنز بيكويك يبرز فاننا نصل إلى المرحلة

التي أرتقى فيها إلى مرتبة الآلهة . منذ ذلك الوقت أخذ نجمه يتألق وغزا العالم بطريقة يصعب تصورها . لقد أدهش العالم بشخصياته الصغيرة التي أبدعها ابتداءً . ويسىء بعض الناس الظن بالكتاب الذين يكسبون شهرة واسعة، معللين ذلك بأنه لا بد أن تكون كتاباتهم رخيصة أو من النوع المبتذل، ولكن هذا ليس صحيحاً لأن القراء يطلبون نوعاً خاصاً من الأدب مهما كان نوعه ، وذلك بدلاً من أن يقرأوا نوعاً آخر من الكتابة لا يحبونه حتى ولو كانت أجود نوعاً . وأما في حالة ديكنز فإنه لم يكتب ما كان يطلبه الجمهور فحسب، بل كان يبحث عن نفس الشيء الذي كان يطلبه الجمهور. كان ديكنز يتقرب إلى الجمهور كما أنه يتقرب للآلهة ويتحدث إليهم . لقد أعطاهم ما استطاعوا فهمه كما أنه كان يعتقد فيما كتب عنهم . لذا كان ديكنز يجهد نفسه في العمل، فيعمل ليلاً ونهاراً وكان إذا ما تعب أو عجز عن التفكير لجأ إلى قطع المسافات الطويلة مشياً في الظلام ثم يعود إلى المنزل ليستأنف الكتابة . لقد وطد المؤلف نفسه ليصل إلى أعماق قلب الرجل الفقير وزحف بجهد على جناح الكد والعمل ليصل إلى الطبقات العليا . . .

إن أول طفل أنجبته تشارلس ديكنز كان ذكراً . وكان ذلك في يناير عام ١٨٣٧ أي الوقت الذي بلغ فيه ديكنز الخامسة والعشرين من عمره . وكان قد نسي ماضيه بما فيه من فقر وذكريات محزنة . فقد كتب له أن لا يعرف الفشل إلى آخر حياته، إذ فتح له طريق النجاح حتى وصل إلى المجد والشهرة . وكان تشارلس يسير في هذا الطريق بمتطيا عدة جياذ ولكن قبل ميلاد الطفل كان قد بدأ في تحرير « كسكول بنتلي » وفيه ظهرت أعداد « أوليفر توست » وكانت تنال هذه الكتابات على الرسام كروكشانك ليرسم لها الصور المناسبة ولسكنها كانت تختلف عن زميلاتها في « بيكويك » وذلك لأن

الموضوع كان مختلفاً في « أوليفر تويست » تحدث ديكنز عن عالم آخر يختلف عن العالم الذي عاش فيه آل بيكويك الذين كانوا يعيشون في مرح وبجبوحه من العيش . لقد رأى ديكنز لندن التي وصفها في « أوليفر تويست » حين كان مخبراً يصاحب رجال البوليس في جولاتهم في مغارات اللصوص والأحياء الفقيرة في المدينة. وقد رأى بعضاً منها خلصة والبعض الآخر حين كان في عمر « أوليفر تويست » وكان طفلاً مهملاً يروح ويغدو كل ليلة بعد انتهاء عمله في مصنع « وارن » لكي يرى أهله الذين كانوا يقطنون السجن بسب ديون والده . فكان في طريقه يمر بطرقات وأزقة وامعاؤه تتلوى من الجوع فيرى كثيراً من مناظر الفقر والبؤس. ولقد أطلق على الفصل الاول من « أوليفر تويست » « نظرة لقانون الفقراء » وكان الدليل على رخاء ديكنز هو انتقاله من سكناه في طابق بالدور الثالث الى منزل محتوى على اثنتى عشرة غرفة . إن الثلاثة غرف لم تكن كافية للعائلة التي كان عددها آخذاً في الازدياد وذلك لأنه عند ميلاد طفله الاول كان افراد العائلة يترددون لرؤية المولود ثم ينزلون بعدها ضيوفاً على ديكنز فكان المنزل لا يتسع بهم، ثم ان ضيوف المؤلف كان عليهم أن يصعدوا الى الطابق الثالث وهذا في نظر ديكنز لم يكن ليتفق مع شهرته ومع لقب « بوز » ولذا اتخذ سكناه في شارع « دوتى » الذي كانت له قيمة في ذلك الوقت أى في عام ١٨٣٧ ، إذ أن كل منزل كان له حارس خاص يقوم بحراسته ويمنع الغرباء من دخوله وأما الآن فان هذه المباني قد تحولت الى جمعيات أو مراكز رئيسية لنواحي نشاط متعددة أو مؤسسات تجارية وفي منزل رقم ٤٨ شارع « دوتى » يوجد المركز الرئيسى « لجمعية زمالة ديكنز » .

كان من الاسباب التي أدخلت السرور على حياة العائلة الجديدة

في « فرنقال إن » هو وجود ماري هوجارث هناك . لقد جاءت لتمسك مع
أختها « كيت » قبل ولادة طفلها الاول . ولقد ساعدت تشارلس في اختيار
أثاث منزله في شارع « دوتى » . كانت ماري في ذلك الوقت تبلغ السابعة
عشرة من العمر ، ولم تكن بالطفلة كما أنها لم تكن كبيرة السن ، ولم يرد أحد
أن يراها تتقدم في العمر إذ كانوا يريدونها أن تبقى كما هي بدون تغيير ، وشاءت
الأقدار أن تحقق أمانهم ولكن بصورة أخرى . كان يسود ماري السلام
الذي يشع من وجهها ولا يكاد يفارقها أينما ذهبت . وفي ٧ مايو ذهبوا
جميعاً للسرحد ورجعوا مسرورين يضحكون ويتحدثون عن سهرتهم الممتعة
ثم ذهبت ماري الى غرفتها وهي تحاول أن تعاود ذكرى طرأت على مخيلتها
فما كاد يسود السكون ، حتى سمع من في المنزل صوت بكاء يصدر من غرفة
ماري ، فقد كانت تناديهم فجاءوا على عجل واستدعوا الطبيب ، ولكنه لم يكن
في استطاعته أن يقدم لها يد العون لضعف قلبها ، وكان أن قدر لها أن تختم
حياتها في هذه الليلة . ولم يصدق ديكنز الطبيب وظل الليل بأكمله وهو يضمها
بين ذراعيه ليساعدها على التنفس كأنه يحاول برغبته القوية أن يجعل الروح
تظل ساكنة في جسدها ، ولما لاحت خيوط النور نادى ماري عليه بصوت
خافت ثم فاضت روحها لحالها ، وقد كتب ديكنز عنها « جميلة وفي ريمان
شبابها كما أنها صالحة وتقية . إن الرب أعدها ضمن ملائكته وهي في سنها
المبكر أى في السابعة عشرة من عمرها ١١ » ، إن الحزن على موت ماري هز
عواطف تشارلس وحرك فيه كوامن الشجن والمكثرة تأثره اضطر الى مغادرة
لندن . ولمدة شهرين لم تظهر اعسداد بيكويك يبرز كما أنه تعطل في
كتابة أوليفر تويست ، ولما رجع من الريف تظاهر بالمرح ولكن خاتم
الصغيرة لم يترك اصبعه لحظة واحدة ليلا أو نهاراً ، بل ظل في اصبعه طول

حياته وقد بلغ من شدة صدمة موته عليه أنه ظل في السنوات التالية لموتها يراها في أحلامه . لقد كانت ماري في نظر شارلس المرأة المثلى الطاهرة التي لم تكن تعرف بعد تجارب الحياة .

ولما بلغت ابنته الأولى عاماً من عمرها نزحت العائلة بها الى تويكنهام لقضاء فصل الصيف للاستمتاع بالهواء وللحوار مع أطفال أصدقائهم الذين كانوا هناك حينذاك . وقد كون الأطفال نادياً أسموه «نادى اللعب بالمنطاد» وكان هذا موضع اهتمام ديكنز، كما أن الأطفال كانوا يحبونه لأنه كان خير صديق لهم . وحتى الأطفال الذين لم يروه مطلقاً كانوا يحرقون له الرسائل وكان ديكنز يرد على تلك الرسائل بنفسه . وقد انتقل ديكنز الى «ديفونشير تيراس» حيث قضى الأعوام بين ١٨٣٩ - ١٨٥١ وفي هذه المدة كان يباشر بنفسه الإصلاحات كما أنه كان يشتري المفروشات من أشهر المحلات التجارية وليس كما حدث في المرة الأولى حين كان يذهب مع ماري هو وجارث الى محلات الأثاث المستعمل ، ليقارن الأسعار بعضها ببعض ثم ينتقى ازهدها . وكان لمنزله الجديد حديقة . ولم تكن تؤثر فيه أصوات العربات وجلبتهاء ، وهي تمر أمام منزله كما أن أصوات الأطفال وهم يلعبون لم تكن تضايقه . وكانت غرفة مكتبه في الطابق الاسفل من الخلف وقد أُولع بحب النظام في العمل ، وكانت غرفته غاية في الإتقان . وكان ديكنز يضع على رفوف في غرفته هدايا أصدقائه وكان يستمتع بالنظر إليها لأن كل هدية كانت تذكره بصديق عزيز لديه . . .

اعتاد ديكنز أن يذهب الى مكتبه ويبدأ في الكتابة فإذا تعب أو أعتراه ملل وضع قلبه وخرج الى الهواء الطلق ليمارس الألعاب الرياضية ثم يرجع الى مكتبه يحمر الوجه ، وعينه ترقان من السرور ثم يستأنف كتابة قصته وكان كثيراً ما يصاحبه في المشى فورستر أو غيره من أصدقائه المقربين . وكان في

أغاب الأحياء بدعو الأصدقاء للاجتماع فى مكان ما فى مذهب هنسك يقرأ لهم بعض ما كتبته أو كثيراً ما كان يدعو فورستر الى فندق حيث يشاركه فى تناول الطعام ثم يطلعه على ما لديه من مشروعات جديدة . . .

كان من مشاريع ديكنز فى ذلك الوقت إيجاد مسكن ملائم لسكنى أبويه لأنها كانا يسببان له المتاعب، فقد أراد أن يعمل لهما شيئاً ينقذه من المسؤولية نحوهما . لقد كان شارلس يحب دائماً مساعدة المحتاجين وسبب الحظ وكان له طريق خاص فى إيجاد الحل لمثل هذه المشاكل وذلك بأن يعمل الشئ مرة واحدة فىنبى الموضوع . فاذا حدث ان فقد صديق له طفلاً كان ديكنز يكتب له خطاب تعزية يحاول فيه أن يخفف عن صديقه وقع المصاب فيجعل عبارات خطابه تؤثر فى الرجل تأثير السحر فما أن يتسلمه ويقرأه حتى ينسى همومه . . . وقد ظل ديكنز لآخر حياته يسعف الأراذل والمحتاجين والكتاب الذين كانوا يواجهون الشدائد والعائلات التى كانت قد تركت بدون عائل . وكان يستخدم كثيراً من مجهوده ووقته فى عمل الترتيبات اللازمة وجمع الاعانات التى كان يساهم فيها أصدقاؤه ومعارفه ويساهم فى هذه الاعانات بقسط كبير . . .

نجح ديكنز فى الحصول على منزل اشتراه لوالديه وكان يقع فى ديفونشير فى طريق بيلوث واطلق عليه « كوخ مايل إند » وكان هذا المنزل يمتاز ببقعته الجميلة وقد سر والداه به أيما سرور واعتاد أبوه ان يذهب الى الحانة حيث يقابل بالترحاب وينظر اليه كوالد الكاتب المشهور ، وقد ظل والده يستدين الى أن مرض بعد مضى عشر سنوات ومات بعد أن تحمل الآلام بشجاعة !

لا يميل ديكنز الى التكرار فى كتابته وكل كتاب له لونه الخاص وطابعه

الذان يمتاز بهما عن غيره . هو الخبر الدقيق الذى يشاهد ويلاحظ كل ما يدور حوله . وهو المصلح الذى يقوم ببسط الوقائع ، وكتبه لانتخلو من العناصر المحركة للعواطف . وفى الوقت ذاته تحتوى على مادة غزيرة من الضحك وعلى الأقل فهو يوجد خاتمة سعيدة لكل شخص . ولكنه لا يخلط هذه التركيبات مرتين أو يستعمل نفس القالب مرة أخرى . بالرغم من أن المؤلف يبدأ أوليفر تويسست فى فصوله الأولى بذكر بعض الحقائق إلا أنه لا ينجح فى الخطة ذاتها التى تتحول الى تشخيص شجورى ، فتصبح الرواية مملأى بالمفاجآت المؤثرة والألحان المحزنة . ومغارة اللصوص تشبه الجريمة من الناحية الأخرى فيطمس بذلك صورة الحقيقة التى نجح فى تصويرها . كل هذه المناظر تابعة لعهد ديكنز حين كان مخبراً فى جرائم شتى ، وأحياناً نجد أن روح بيكويك يظهر فى الكتاب كما نجد فى قصة « كوني شيكويدي » الذى كان يملك حانة فى طريق باتلبردج . أو الرجل الذى سرق ثلثائه جنيه من نفسه الشئ الذى يثير الضحك طويلاً !

« اوليفر تويست »

١٨٣٧ — ١٨٣٨

هي الرواية التي جاءت بعد بيكويك ونشرت في « بنتلي » . واوليفر تويست عنوان هذه الرواية هو اسم لطفل لم يعرف والديه فقد ولدته أمه في ضيعة ثم ماتت تاركة اياه إلى رحمة المتقادر هناك . فنشأ في وسط قاس كان يعاني منه أولاد الفقراء الأملين . وكان اوليفر يشكو من « تميل » شماس الناحية المستبد على نوع خاص . ولكنه لا يلبث أن يترك المكان ويذهب الى حانوتي ليتمرن على أعمال الدفن ، ثم يفر هارباً فيصل الى لندن وهناك يقع في ايدي جماعة من اللصوص . وعلى رأسهم ايلدي العجوز فاجن ، فيحتجزونه عندهم ويبذلون معه أقصى جهدهم لكي يحولوه الى اهل ولكن تشاء الأقدار أن ينقذه المستر بروفلو في الوقت المناسب

وحدث بعد أن ذهب اوليفر للسكنى في منزل المستر بروفلو أن حاول اللصوص الذين أرادوا الاحتفاظ به ، أن يخطفوه لأن مونكس رئيس العصابة كان يضطهد اوليفر لأسباب شخصية ويريد أن يحتجزه لنفسه ، ليخرج منه مجرماً محترفاً . فيذهب اوليفر ذات يوم في صحبة بل سيكس في مهمة اجرامية خطيرة ولكنه يصاب برشاش بندقية فيقع في أيدي المسز مايل وروز فيحتجزانه عندهما ويعاملانه معاملة طيبة . بعد فترة من الزمن تخبر نانسي صديقتها روز أن مونكس لا يهمل معلومات عن والدي اوليفر وأنه يريد أن يقضى على جميع الأدلة حتى لا يتعرف عليها أحد وتخبرها أيضاً أنه ينوى أن يزوجه باوليفر فما أن نفشى هذا السر حتى يعلم جماعة اللصوص به فيقتلها بل سيكس بدون رحمة وعندما



ديكنز يقرأ على الجماهير

١٨٥٨

تكشف جريمة القتل يحاول المصروع الفرار فيقتل سيكس نفسه ، ويقبض على الباقيين ويعدم فاجن . أما مونكس فيفضي للبوليس بالمعلومات التي كانت لديه فيعلمون منه أنه أخ غير شقيق لاوليفر وقد أراد أن يصبح اوليفر شريراً مدفوعاً بالكراهية ، لرغبته في الاحتفاظ بكل ما كان يمتلكه أبوه من ثروة . وفي نهاية القصة يتبنى المستر براونو اوليفر وأما مونكس فينبى عن وطنه ويموت في السجن ويقضى بمهل يقية حياته في الخنيفة .

اوليفر تويسست هو الكتاب الذى اختلفت فيه آراء النقاد في ناحية قيمته في أوقات مختلفة، أكثر من غيره، ولكنه على كل حال ليس في المرتبة الأولى من كتابات ديكنز. لقد أهمل الكاتب المجتمع في كتابه هذا وأسهب في وصفه للطفولة المهمة المعذبة التي تركت أثراً كبيراً في كتابه اوليفر تويسست ، فاكشفت عبقريته ضمن حدود الرواية ، وسير حوادثها .

أطلق ديكنز للعاطفة والشجون العنان في هذا الكتاب رغم أن روح الفكاهة لم تنعدم كلية بنسبة أن الكتاب قصير ولا يعطى فرصة كافية لإظهارها ظهوراً كافياً . فاوليفر مثلاً يثير عواطفنا ويجعلنا نشفق عليه في مجرى حوادث قصته حتى مأساة نانسي، تلك المأساة الدامية التي نتجت عن تأصل الشر في الانسان وقد أخذ النقاد على ديكنز أنه لم يحسن تقديمها رغم أنها تثير شفقة القارىء . وأما وصفه لسيكس فإنه نجح في عرضه، وذلك من أول ظهوره إلى أن شبق نفسه . أما فاجن فشخصيته تكاد تكون بعيدة عن الحقيقة ومونكس كان يمثل الشر الذى أراد ديكنز أن يظهره في الرواية .

كان الغرض من كتابة هذه الرواية كالغرض من كتابة سابقتها لا للتسلية فحسب بل للتعليم والارشاد . إن ألوفا من المعجبين التفوا حول ديكنز لأنه كان يسموهم إلى عوالم بعيدة عن تلك التي كانوا يعيشون فيها

ليريهم الحقيقة في أجلى صورها وأبرز معانيها. كذلك التف حولهُ أوف من
القرام الذين عبدوا كتاباته لأنه اعتاد أن يحدثهم عن أشياء لم يعرفوا عنها
كثيراً. ولكنها كانت سهلة الإدراك . وكان من ميزات ديكنز أنه كان يقرب
الفوارق بين الفقراء والأغنياء ويضيق كل وقت في كتابته أوليفر تويست .
واعتاد أيضاً أن يكتب بعد العشاء لمدة طويلة وقد وجد هذا الكتاب
دائرة من المعجبين به ولكنها لم تكن كبيرة كالتي تتمتع بها في كتبه الأخرى
وإنما كانت ميزات الكتاب كافية لأن تظل شهيرة . فقد كان ديكنز يتمتع
بدقة نقل الصور من الطبيعة أو من الأحياء الفقيرة وهذه دقة بالغة عرف بها
عن غيره من الكتاب . كان يقتبس الموضوع من صميم الحياة اليومية ويعالجه
بفكره الثاقب وشعوره الحساس حتى أن هذا الكتاب ساعد على القضاء
على كثير من الأخطاء الاجتماعية . لذا سيظل ذلك السفر يمدش أطول مدة
يحمل بين دفتيه هذه الصور الدقيقة التي رسمها صاحبه بقلبه الفياض، ولكنه يجب
أن نذكر أنه إلى ذلك الوقت لم يكتب ديكنز شيئاً إلا وعرض فيه للمشاكل
الاجتماعية ففي بيكويك يبرز هاجم ديكنز « السجون » وفي أوليفر تويست
أظهر خطأ إدارة الكنائس ، كما أنه تعرض لنقد المدارس في بوركشير في
روايته « نيقولاس نكلبي » كل هذه الحوادث وإن كانت واقعية لا وجود
لها الآن إلا في كتبه التي خلدها . وكان تشارلس كما الساحر الذي استطاع
بكتابته أن يقضى على هذه المساوىء إلى الأبد، فلم يبق أثر لتلك السجون أو
المدارس أو المساوىء الكنسية. ولكن مادام ديكنز يقرأ فإن مآسى الماضى
وشروعه وتاريخ المساوىء الأخلاقية التي تدثر بها عصره ستظل في كتبه
وستظل تبرهن على براعته، إذ بفته وسخريته وآلامه حاول أن يصلح من
هذه الأخطاء . إن كتاب أوليفر تويست يحتوى على عدد من الصور

المتوالية التي تختلف بعضها عن بعض فينتقل بالقارىء من مناظر الحزن إلى مناظر البهجة والمرح في أحياء الطبقات الفقيرة. والكتاب مشتمل على وصف دقيق لعوامل طبيعية من موت الأم وجوع الأطفال البؤساء في الجزء الأول منه، ثم ينتقل إلى مناظر الانحدار في الجرائم التي تحدث نتيجة إهمال أو عن قصد والتي لها نتائج مخيفة في الجزء الأخير، ولكن في وسط كل هؤلاء الأشخاص نجد كثيراً من العوامل البشرية التي تخفف من حدة المساوىء. إن غرض ديكنز في كتابه هذا هو إظهار البطل أوليفر تويست وما يحدث له وسط الجماهير وكيف أنه يحفظ من الوقوع في الشر أينما يذهب بواسطة شعور خفي لا يفارقه مهما ساءت الظروف.

برع ديكنز في وصفه لأحزان أوليفر عند تركه الضيعة والمنزل الوحيد الذي عرفه منذ ميلاده، والذي كان يذكره بالجوع والآلام، وحيث لم يكن يستمتع فيه إلى حديث طيب أو نظرة حنونة، ولكن حزنه على مفارقة الضيعة كان يرجع إلى مفارقتها زملائه الذين كانوا يعانون الفقر مثله. إن الشر لا يظهر في صورة جميلة كما أن مناظر اللصوص في مغاراتهم في حالتهم البائسة يعيشون عيشة مؤلمة تنتهى بموت مخجل؛ كل هذا التصوير هو الذى فتح أذهان القرن التاسع عشر وأظهر للعالم ضرورة القضاء على كل هذا البؤس والشر المستوطن.

في قصة أوليفر تويست تختفى روح ديكنز المرحية ومعها تختفى ضحكاتة ففي هذه الرواية نرى دخان مغارة اللصوص يخيم على القصة بأكملها ويقع شبح فاجن في كل مكان!

إن حجرات المستر برونلو وروز مايلي صغيرة مضاعة بالمصابيح تظهر مظلمة لتوطن الشر في جدرانها. إننا نجد أن في الصور التي رسمها

« فيز » صورة لفاجن تحمل كل علامات الوضاعة والذلة ، وفي بعض هذه الصور نجد أوليفر نائماً على نافذة مفتوحة في منزل أحد الذين أشفقوا عليه واسكنوه معهم ، ثم نرى في الغرفة نفسها فاجن ومونكس ينظران إليه بنظراتهما الناقبة المخيفة ... وهذه الأوضاع تظهر لنا فكرة ديكنز وهي أنه يعتبر اللصوص جيشاً من الشياطين يغزون الأرض والسماء يبحثون عن روح أوليفر ويحاصرون المنزل الذي يقطنه . ومنذ أن أتم كتابة « أوليفر تويست » لم ينقطع عن التأليف فقد بدأ في عام ١٨٣٨ في كتابة « نيقولاس نيكلي » فقيض لشهرته أن تزداد وتتسع انتشاراً . كان العالم كله ينتظر كتبه ويطلبها وكان المؤلف يعمل ليلاً ونهاراً وكأنه في مصنع دائم الإنتاج .

« نيقولاس نيكلي »

١٨٣٨ - ١٨٣٩

تدور هذه الرواية حول شاب في التاسعة عشرة من عمره وهو شاب كريم ذو نشاط واسع، يقطن مع أمه وأخته المرححة كيت اللتان تركتا بدون ثروة بعد موت رب العائلة ، فيلجأون جميعاً الى طلب المساعدة من عمهم رالف نيكلي المرابي الذي يعاديه نيقولاس عندما يبدأ كسب عيشه . يذهب نيقولاس الى مدرسة في يوركشير . حيث يعمل كمساعد مدرس فيكتشف « واكفورد ستيرس » الذي يعامل أربعين طفلاً معاملة سيئة ولا يعطيهم غذاء كافياً ، وكل ذلك يمثل تحت ستار العلم ، ثم يكتشف أيضاً انه يعامل « سميك » على وجه الخصوص معاملة قاسية وكان « سميك » هذا ضعيف العقل وترك هناك للاقدار من غير رعاية أحد . فكانوا يستخدمونه كخادم لقضاء حاجاتهم .

يغضب نيقولاس لتلك الأحوال التي يراها فيعتدى على « سكويرز » ويهرب مع « سميك » الذي يصبح صديقاً مخلصاً له. ولفترة من الزمن يعمل نيقولاس على الاتفاق على نفسه وصديقه باحترافه مهنة التمثيل في فرقة إقليمية كان يديرها « فنست كراملز » ثم ينتقل لخدمة « اخوان شريبل » ونرى أن الاسم يدلنا على طبيعتهم لأنهم كانوا يدخلون السرور على كل من كان يعمل معهم. في ذلك الوقت كانت كيت نيكلي تعمل عند مدام ما تتاليني حائكة الملابس يهينها السير « ملبرى هوك » بوحى من عمها فينقذها نيقولاس من هذه المعاملة بأن يدعو السر هوك الى مبارزة يقتل فيها الأخير. وبعدئذ يتولى نيقولاس الاتفاق على أمه وأخته. ثم يقع نيقولاس في حب مادلين براى فيعمل رالف نيكلي على تزويجها من جديد، وهو مراب بشع فيزداد بغض نيقولاس لرالف لأحباطه خططه، ويحاول أن يبعد « سميك » عنه وذلك لعلمه بصداقتهما ولكن صحة « سميك » تزداد اعتلالاً ويزداد خوفه من أعدائه ثم يحبط كل الخطط بمساعدة « نيومان نوجز » وحين يواجه نيكلي الخراب ويعرف الكل خططه، يشنق نفسه فيتزوج نيقولا من مادلين وتزوج كيت من فرانك ويستبعد سكويرز وأما جريد فيقتل.

تعتبر رواية نيقولاس نيكلي مثل من أمثلة كتابات ديكنز الأولى. فهي عبارة عن رواية من الطراز القديم التي يظهر فيها البطل كأداة يستخدمها المؤلف في القضاء على أسباب البؤس، أو هي نوع من الأنواع التي يسميها الانجليز في المسرحيات « العصا » والعصا مهما كان نوعها فانها كافية لضرب سكويرز ١١ اعتاد ديكنز عندما كان يكتب هذه القصة أن يذهب بنفسه الى الحى الذي مثلت فيه ويسترجع الأخبار في ذاكرته، ويسمع كل ما يقوله الناس حولها ويعي كل ذلك في عقله الباطن. لقد ذهب الى الشمال على عجل

عندما سمع أنه يوجد هناك مدارس داخلية بأجر زهيد ، وتقع في أماكن متفرقة بعيدة عن المدينة، حيث كان الأهالي يرسلون أطفالهم إليها تخلصاً من مضايقة تهم . إن القصص التي كانت تروى عن المعلمة التي كانوا يعاملون بها على أيدي مدرسيهم الغلاظ القلوب كانت أحياناً تسكتب في الجرائد . وكان ديكنز يغضب حين كانت تتراعى إلى مسامعه . ذهب ديكنز في صحبة فيز عن طريق الحقول في يوركشير إلى « جريتينا بريدج » وأمضى هناك عطلة الأسبوع في فندق قريب وهناك سمع بأن في إحدى هذه المدارس مات عدد من الأطفال لسوء الإدارة ووفرة الإهمال فذهب ديكنز إلى مقابر الكنيسة المجاورة فرأى لوحة معلقة فوق قبر أحد هؤلاء الأولاد الذين قضوا نحسهم في مثل هذه المدارس منذ ثمانية عشر عاماً، وعليها أسماءهم فاستشاط ديكنز غضباً وعزل على أن يحارب بقائه أصحاب هذه المدارس عسى أن تجدى كتابته نفعاً وتستأصل داء عز شفاؤه . ولتكن كتابته منتجة . كانت شخصية نيكلبي تمثل شخصية أمه وقد اعترف هو بذلك فيما بعد . في الكتاب نلس الصبر الذي كان من نصيب نيقولاس وأخته باحاديث أمهم التافهة وأعمالها وبالطريقة التي تدخل السرور على القراء . فقد كان عند كتابة نيكلبي يفكر في أمه بحنان ممزوج بالفرح وبقليل من الشفقة . إنه استطاع أن يذسى أن أمه هي التي كانت تريده أن يظل يعمل في مصنع « وارن » في الوقت الذي كان يريده أبوه أن يذهب ليتم دراسته . لقد كان ديكنز في أيام شهرته يرجع إلى ذكريات الماضي فيقدر صعوبات حياته في أيام الفقر والسجن مع أبويه، لاسيما ما كان يواجهه أمه من متاعب مع بعلمها مكوبر الذي يمثل شخصية جون ديكنز في كتاب « دافيلد كوبرفيلد » وحتى مس روز درموند التي رسمت صورة لديكنز وأهدتها إلى كيت حينما كانت مخطوبة لديكنز

ظهرت في الكتاب تحت اسم مس لا كريفي وهي ترسم الصور المصغرة . إن أخطاء « أوليفر تويست » تظهر مرة أخرى في « نيقولاس نيكلي » ولكن الكتاب أكبر من سابقه فهو متنوع في شخصياته ومناظره . إن حال المدرسة البائسة والقسوة التي يصفها المؤلف تخالف الأشياء التي من نوعها في أوليفر لأن ديكنز لا يكثر في الحديث عليها كما أنه يستخدم الفكاهة والشعر في روايته .

إن أشخاص القصة كانوا يجيدون الديالوج حتى أن الناس أخذوا يكررون أقوالهم في كل مكان وزمان . كما إن كل الصفات التي منحت بيكويك شهرته بما فيها من مرح فائض وفكاهة غزيرة صادرة من أعماق القاب . . . كل ذلك أدى الى شهرة « نيكلي » زد على ذلك ما أوجده هذه القصة من مزايا لم تظهر في الكتابات السابقة ، وهي أن الحوادث أكثر اتصالاً ببعضها البعض . وهناك أيضاً دقة في التعبير عن الشخصيات فقد كان القراء يشعرون أنهم يعرفون عائلة نيكلي ، ويعيشون معهم في عالمهم الذي كان يطفح بمناظر ومشاهدات مسلية كلها ضحك ومرح . وبظهور سميك يعرض علينا المؤلف صوراً مؤلمة ملأت العالم شفقة ، لما يجلبه الفقر عادة من قسوة وجمل أو إهمال لا شك أنها تؤثر على حياة الناس . ثم تعرض لنا شخصية نوجز ذلك الرجل المتهذب بطبيعته أو ملاك الرحمة المنكر لذاته . وفي كثير من الأحيان نجد أن ديكنز يبالغ في كتابته ، ولكن هذا يرجع إلى حبه للمرح والفكاهة والضحك . فحين يوجد الخير فأننا نرى جماله وحين يوجد الشر فأننا لا يمكن بأي حال أن نخطأ في معرفته ! إن ديكنز يضرب ضربات قوية بقله ويستخدم الحقائق القديمة ، فيظهرها في مظهر جديد فيكسب الأفكار المعروفة عاطفة لم يشعر بها الإنسان من قبل . ففي نيكلي يرى الإنسان الحياة الداخلية فتصير معروفة لديه كما يعرف معالمها الخارجية رغم أنه لا يعلم

شيئاً عن الأماكن التي كان يظن أنه يعرفها حق المعرفة .

إن مسز نيكلبي في رجوعها إلى ذكريات الماضي تعطلنا عن سماع قصة نيكلبي . ولما كنا حسناً فعلت ، لأننا لا نريد أن نعلم شيئاً عما حدث لمادلين براى وإذا كانت مسز نيكلبي تضايقنا بأحاديثها وذكرياتنا فهي تمثل الحقيقة التي يجب أن لا ننساها ، حقيقة أن التجارب لا تعتبر في حياتنا الحقيقة كشيء مخزن . بل تعتبر موضوعاً مستجيباً لدى كبار السن . فالناس الذين يحاولون استخلاص الدروس من التجارب فانهم يفقدون شجاعتهم ولكن الناس الطيبى القلب ، أمثال مسز نيكلبي ، الذين لا يحاولون إيجاد ارتباط بين تجاربهم فان الماضي يصبح لديهم على جانب كبير من الأهمية . إن مسز نيكلبي تنغمس في ذكرياتها لأنها تعلم أن الحياة كلها جميلة ومستجيبة .. وأما المستر ماتتاليني فهو شخصية مضحكة في هذا الكتاب يقول مثلاً عند ما يتحدث عن زوجه : « إنها ستصبح أرملة حسناء وأما أنا فساأصبح جثة هامدة وستسكب بعض النسوة الجيلات الدموع مدراراً وأما هي فستضحك ضحكا شيطانياً ! »

ويصف ديكنز فنسنت كرمز وفرقة . فيعبر بها أحسن تعبير عن روح المسرح إذ ذاك يقول « لقد حاولت أن أتذكر إذا كنت قد ذهبت إلى المسرح في حياتي ولم أغادره بذكريات حسنة حتى ولو كان المسرح حقيراً » والحقيقة إن كتاب نيقولاس نيكلبي يشبه المنظر الذي يضعه الإنسان على عينيه لينظر من خلاله فيرى العالم كما يراه الشاب . إن المنظر الذي يقدمه لنا المؤلف هو منظر قوى يظهر لنا الخير كما أنه شيء حسن ، ويظهر لنا الشر كما أنه رذيلة ، ثم يظهر لنا العالم كما أنه شيء عجيب ، ولذلك نجد أن هذه الرواية تظهر لنا الحياة بكل ما فيها من معان ...

« ساعة السيد همفري »

عام ١٨٤٠

بالرغم من ان أعمال ديكنز كانت تتطلب منه مجهودات كبيرة ، إلا أنه كانت لديه مشروعات كثيرة فقد كان يملك العقل الذي يريد ان يعمل كل نوع من العمل في وقت واحد. وكان أيضاً يحب أن يعمل عمله وعمل غيره. لقد كان يتصور مجلة ضخمة هو محررها وكان يريد أن يشاركه غيره في تحريرها . فقد كانت الفكرة في كتابة « ساعة السيد همفري » أن تكون شيئاً شبيهاً بالف ليلة وليلة. تجري حوادثها في لندن، وفيها يقوم جوج وما جوج العملاقان بادوارهما خير قيام وكان يود أن يدمج القصة داخل قصته. وكانت فكرته أن يكون كتاب « ساعة السيد همفري » مجموعة لروايات لا حصر لها.

لقد بدأ تشارلس ديكنز في عام ١٨٤٠ كتابة « ساعة السيد همفري ». عندما خامرته فكرة بدأ ينفذها ولما سكنها تغيرت وحولت مجراها كلياً وكانت الفكرة الاصلية أن يجمع نفر من الأصدقاء في شبه ناد ، يلتفون حول السيد همفري وهو رجل مفكر كان يحب أن يتمنى حول لندن وخصوصاً في الليل ويجمع حكايات غريبة مضحكة، وكان مقرراً أن يجمع أعضاء النادي حول الساعة العتيقة ليقرأوا قصصهم وكان ضمن المشروع أن يظهر فيه سام ولر وبيكويك .

أخطأ ديكنز في كتابة هذا الكتاب وذلك للأسباب الآتية :
أولاً : لم يكن في استطاعة ديكنز أن يشرح للقراء الطريقة التي حصل بها على معلومات قصته . .

ثانياً : إن هذا الكتاب ظهر في أعداد اسبوعية وليست شهرية فلما صادفه الفشل تركه وبدأ كتابة « الخانوت العجيب »

« الخانوت العجيب »

١٨٤٠ — ١٨٤١

رواية الخانوت العجيب التي ألفها ديكنز عام ١٨٤١ كجميع رواياته الأخرى ما عدا بيكويك يبرز في عنصر المأساة أو على الأقل عنصر العاطفة وقد كانت هذه ميزة القرن الذي ظهر فيه ديكنز .

لقد ظهرت هذه الرواية في مجلد مستقل في عام ١٨٤١ ولكنها كانت في الأصل جزءاً من كتاب «ساعة السيد همفري» الذي ظهر عام ١٨٤٠-١٨٤١ وإننا نجد أن همفري هو الذي يروي الفصول الأولى. وتعيش نل الصغيرة في الجوار المقهص الذي يسودها، ولم تكن لديها سلوك غير تحف جدها العجوز الذي كانت تتولى أمره بعطفها وحبها له . يضيع هذا الجذ ثروته التي أخذت منه تدريجياً بواسطة « فرد » شقيق نل الصغيرة فيضطر الجدازاء ذلك أن يقترض النقود من دانيال كويلبس، وهو بشع المنظر، وكان يستعمل هذه النقود في المقامرة بها طمعا في أن يسترجع ثروته من أجل نل الصغيرة . وكان كويلبس يعتقد أنه ثري بخيل ولكنه حين يعرف الحقيقة يحجز على الخنوت فيهرب الرجل العجوز والطفلة، ويجولان في البلدة يدانين شداثد قاسية ويطاردهما شبح كويلبس ولا يزال يبحث عنهما حتى يحطاً رحالهما في قرية بها كنيسة فيعينان لحرائقهما . يرجع أخ الجدا من الخارج ويقرر أن يبحث عن أخيه والطفلة نل وينقذهما من الحاجة والعوز . ويجد في ذلك صعوبة كبرى، ولكنه يهتدي أخيراً إلى مقرهما، وقبل أن يصل إلى المكان الذي كانا فيه تموت نل الصغيرة ويتبعها الرجل العجوز . . إن هذه الرواية تحتوي على كثير من الشخصيات المعروفة بجانب القزم كويلبس

الذى يغرق نفسه فى الوقت الذى يوشك أن يقبض عليه فيه بسبب جرائمه المتكررة وكان يماونه فى أعماله المحامى سامبسون براس وأخته الدميمة سالى . وخادم نل الأمين وغيرهم كثيرون .

إن أهم أشخاص تلك الرواية بالنسبة للمؤلف هم : نل الصغيرة وجددها وقد حدثت ضجة حول هذه القصة ، وخصيصاً حول بطلتها فإن بعض الناس طلبوا من ديكنز أن يتركها تموت فى آخر الرواية فى حين أن البعض الآخر فضل لها الموت فى أولها . أخذ ديكنز فكرة الرواية من المناظر التى كان يراها فى الشوارع فأوحى إليه بفكرتها الغريبة . فنل الصغيرة مثلاً هى مارى هو جارت التى ماتت فى سن مبكرة ، فى ريعان شبابها ، فزن عليها المؤلف حزناً شديداً عطله عن العمل لمدة شهرين . وكان دائماً يراها فى منامه كما أنها كانت مثلاً نادراً للجمال والحسن والشباب . إننا فى هذه الرواية نعجب « بذك سوفلر » فهو من أبرز الشخصيات بجانب كونه انساناً بحسن التصرف رغم أنه يعرف عن نفسه أنه غريب الأطوار ولعل أطرف ما جاء فى هذا الكتاب ما يتحدث به سوفلر إلى الرجل الأعزب إذ قال أنه لا حق له أن يمكث نائماً اليوم كله ذلك لأن أصحاب المنازل لا يستطيعوا أن يسكنوا أشخاصاً بمفردهم ليناموا بدون أجر اضافى على سكنى رجل واحد مهمته أن يعود لينام الليل فقط وليس النهار بأكمله .

إن نل الصغيرة كانت بالنسبة لديكنز تظهر أولاً بمثابة حلم الطفولة ، وكانت فى كل ساعة تأخذ شكلاً جديداً ووجهاً صبوراً . وكان الجسد العجوز يلف ذراعه على نل فى عطف ظاهر ، وفى الصورة الثانية لنل نجد أنها نائمة فى الحانوت وحوها أشياء غريبة وقد قال ديكنز « لقد كانت تجول دائماً فى خاطرى لذا أردت أن أحيط هذه الطفلة الوحيدة بأشياء غريبة

الشكل وأن أجمع حول هذا الوجه البري وتلك النيات السديمة زملاء أغراب غير متجانسين مثل الأشياء المقبضة التي حول سريرها حين تبدأ قصتها » كانت هذه الصورة تصبح أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم . كيف يستطيع ديكنز أن يبعد ماري عن الخطر الذي كان يواجهه نل الصغيرة بل إنه أحياناً كان يعتقد أنه يستطيع أن ينقذها من الموت ولكن فورستر صديقه المغامر نصحه بأن يتركها تموت . هذا هو الحل الوحيد الذي به يستطيع أن يترك الطفلة تذهب بسلام وهي محافظة على طهارتها فتركها تموت ولكنه حزن حزناً شديداً على هذه الخاتمة ، فكتب إلى فورستر يقول « إن ماري العزيزة وكأنها ماتت البارحة حين افكر في هذه الخاتمة المحزنة » . وتحتوى هذه الرواية على كثير من الشخصيات الحقيقية . لا يستطيع فرد أن يثبت على خريطة انجلترا الطريق الذي سلكته نل الصغيرة في سفرها . إن ديكنز كان يحرص على أن تحدث الأشياء في المكان الذي تمثل فيه ولكن في هذا الكتاب لا يذكر المؤلف أسماء وحتى القرية التي نزلت فيها نل الصغيرة لا يذكر اسمها . وإن عدم ذكر الأسماء له دلالة . إننا يجب أن لا نبحث عن نل في لندن ، أو شروبرشير أو المدينة السوداء التي مرت هي بها . إن المؤلف أحياناً ماري لتمشى على الأرض كأنها في عالم الأحلام - عالم معروف ولكن مختلف !

« بارني ريج »

وعندما كان كتاب « الحانوت العجيب » على وشك الانتهاء كان غلاف « ساعة السيد همفري » يحمل اعلاناً من مستر شامبان وهول بأن القصة التالية ستكون « بارني ريج » وقد كان ديكنز يفكر في هذا العنوان قبل أن

يبدأ في كتابة « أوليفر تويست » إلا أنه أرجأ الكتابة عنه وكان يدور موضوع « بارنبي ريج » عام ١٨٤١ حول مظاهرات قام بها غوردون في عام ١٧٨٠ وكانت هذه المظاهرات ضد الكاثوليك . في أول الرواية يقتل روبن هيرديل من أشرف المدينة ولكنهم لا يستطيعون معرفة القاتل أما أخوه جود فرى فهو كاثوليكي تابع لكنيسة روما عدو لسرجون شستر ، ابن السرجون شستر ، الذي وقع في حب بنت اخ هيرديل « إيما » ويحاول السرجون شستر والمستر هيرديل أن يحبطا الخططة ولكن تقوم مظاهرات جوردون فتحول دون تحقيق رغبتهم . وكان السرجون شستر قد أوقد نار هذه المظاهرات سرياً . فلا يلبث المتظاهرون أن يحرقوا منزل هيرديل ويخطفوا إيما فيقوم إدوارد بانقاذاها كما انه ينقذ هاريديل الذي يوافق على زواجه من بنت أخيه ويستطيع هاريديل أن يكتشف قاتل أخيه فيدفع « ريج » أب « بارنبي » ثمن جريمته وأما شستر فيقتل في مبارزة مع هيرديل .

هذه الرواية كانت الأولى من نوعها ففيها يدور الموضوع حول زمن غير الزمن الذي كان يعيش فيه الكاتب وتقع المشاهد والحوادث في الزمن الذي كان فيه الرجال والنساء يشنقون بدون ذنب في جميع أنحاء المملكة . كما كانت هناك حركة دينية خاطئة جلبت كثيراً من الحزن والمأساة . والجريمة التي تحدث عنها ديكنز في أول الرواية لا يلبث أن يضيع اهتمامنا بها أما جمال الوصف وبراعته فهو يظهر من أول الرواية إلى آخرها منذ الاضطرابات الأولى إلى نهاية العاصفة . لقد أبدع ديكنز في وصفه للجهل الشعب وثوراته وانتشار العريضة في كل مكان فتمكن الجهل والنقر والنشأ أظفرهما في جسد الأمة ولكن في وسط كل ذلك نرى جبريل فاردن وعائلته يدخلون علينا السرور والمرح فننسى الشعب الهائج . وهذه الرواية بجانب مزائها الداخلية

التي يصفها المؤلف بالتفصيل فهي كتاب كامل . وقد يبدو لنا غريباً أن ديكنز مثل كثير من من معاصريه وسابقيه امثال سكوت لم يكتب روايات تاريخية جلبت الشهرة إلى أصحابها سريعاً ولكنه يتناول الرواية التاريخية في « بارني رديج » « قصة بلدين ورغم انه لم ينجح في كتابتهما كما نجح في كتابة رواياته الأخرى . إن الحوادث والاشخاص لا يكونون العناصر الرئيسية في أهميتهم ولو أنه كثيراً ما كان ينجح في وصفهم . إن حوادث مظاهرات غوردون ولو أنه يصفها بنشاط واهتمام بالسرد التاريخي إلا أنه كثيراً ما يبالغ في التقديم . هذه القصة يسردها المؤلف بقوة ولكن أهم ما يلفت نظرنا هو المناظر المضحكة أو مناظر الأبطال المضحكين . في هذه الرواية نجد أن الحوادث تدور حول موضوع واحد ولكن التأثير الاجمالي للكتاب غير موجود وذلك لأن الحوادث التي تعجبنا ليست مرتبطة بعضها ببعض كما حدث في كتاباته الأولى . وكتاب « بارني رديج » على كل حال فيه مواطن ضعف وقوة حول مناظر المدن والمناظر الطبيعية ومناظر الجماهير . كل ذلك يحسن ديكنز وصفه وأهمية هذا الكتاب الذي يشترك فيه أيضاً كتابه « قصة بلدين » هي أن هذه الكتب تظهر لنا آراء ديكنز في الماضي . أي ما بين ١٨٤١ و ١٨٥٩ وبعد انتهاء ديكنز من كتابه « بارني رديج » قرر أن يسافر إلى أمريكا فكتب إلى جون فورستر يقول . —

ولكي ادهشك فانه بعد الروية والتفكير في الموضوع قررت أن اسافر إلى أمريكا . « وفعلًا قرر ذلك وسافر تصحبه كيت .